



## بدءًا من القرن الهجري الأول

# طريق الفرس لضرب الهوية العربية بـ "الشعبوية"

بعد أن فشل الفرس عسكريًا في مواجهة العرب المسلمين في مراحل تاريخية سابقة؛ اتخذوا منهجًا آخر من خلال أيديولوجيا جديدة عمّقتها الحركة الشعبوية التي تمثل واحدة من فصائل مخطط المؤامرة على العرب المسلمين، وقد عمدت الشعبوية إلى مهاجمة العرب كَمَلّة لواء الإسلام وأصحاب الدولة الإسلامية في تاريخهم وأسلوب حياتهم، ومهاجمة التاريخ الإسلامي، واللغة العربية، والطعن في أصول القيم الإسلامية وجذورها، كذلك عمدت الشعبوية إلى إذاعة المجون، والانحراف، واعتبرت ذلك نوعًا من التحرر.

الشعبوية حركة قديمة قدم العلاقة بين العرب وجيرانهم من العجم المجاورين على تخومهم في فارس والأناضول والشعوب التي استوطنت بلاد الشام وشمال أفريقيا، فالعلاقة بين الفرس وعرب الجزيرة قبل ظهور الإسلام تؤكد ذلك، ووصف كسرى للعرب بانتقاص أمام النعمان بن المنذر ملك الغساسنة يشير إلى ذلك بوضوح.

الشعبوية ليست -كما يزعم الشعبويون- ردة فعل لاحقة ظهرت في القرن الأول الهجري نتيجة تصرفات عربية إثر قيام الدولة الأموية في الشام والعراق وفارس ثم الأندلس غربًا والصين شرقًا، لقد كانت في حقيقتها حقدًا على العرب الذين خرجت من عندهم رسالة الإسلام، وحملوها إلى العالم، بل إن ترسيخها توسع في الوجدان الأعجمي وفي أدبيات القرن الثاني الهجري، بعدما استولى الفرس على مفاصل الدولة إثر انقلاب الخليفة المأمون على أخيه الأمين بمساعدة الفرس ودعمهم.

جاء في بحث منشور بمجلة جامعة الأزهر، سلسلة العلوم الإنسانية للباحث عثمان محمد العبادلة، أنه رُصد ظهور الشعبوية مبكرًا في العصر الأموي، وكان الشعر العربي خزان حفظ لتلك النزعة غير السوية التي لا تزال مستمرة حتى اليوم بسبب توريث العداء ضد العرب، فقد ظهرت الشعبوية في الشعر مبكرًا، فافتتحها أحد شعراء العصر الأموي؛ إسماعيل بن يسار النسائي الذي افتخر بقومه وأمجادهم، وعيّر العرب في جاهليتهم بعاداتهم وطريقة عيشهم. لكن الظروف السياسية والاجتماعية لم تكن لتسمح لهذه النزعة بالانتساع والشمول، والتحول إلى تيار له أنصاره ومؤيدوه. وكان على هؤلاء تحيّن الفرصة المناسبة لتغيير الوضع السياسي.

ويحدد العبادلة "يبدو أن اسم الشعبوية لم يظهر إلا في العصر العباسي الأول؛ لأن أصحاب هذه النزعة التي تحاول مساواة العرب أو تحقيرهم لم تتخذ شكلًا قويًا واضحًا يصح أن يطلق على معتنقيه اسم إلا في هذا العصر. أما قبل ذلك فقد كانت نزعة خفية لا تستطيع الظهور، وإذا ظهرت أُخمدت، والحاجة إلى اسم إنما تكون بعد أن يتخذ المبدأ شكل عقيدة عامة أو حزب. وكذلك فإن هذا الاسم لم يطلق على هذه النزعة في العصر الأموي. وأقدم ما وصل إلينا من الكتب التي استعملت لفظ الشعبوية كتاب البيان والتبيين للجاحظ". بل تناولها الجاحظ في العديد من كتبه.

ومما قاله الشاعر الفارسي النسائي فاضحًا ما يحمله تياره الشعبي من كراهية وحقد على العرق العربي:

رب خال متوج لي وعم  
إنما مسمي الفوارس بالفرس  
ماجد مجتدى كريم النصاب  
مضاهاة رفعة الأنساب  
إذ نربي نباتنا وتدسون  
سفاها بناتكم في التراب

وقد واصل النسائي افتخاره بقومه الفرس على العرب في قصيدة أخرى قالها في حضرة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، الذي لم يؤذ، وهو ما يؤكد كذب ادعاء الشعبويين عن كراهية العرب لهم، وكل ما فعله الخليفة إخراجهم من مجلسه، حيث قال فيها:

إني وجدك ما عودي بذئ خور  
أصلي كريم ومجدي لا يقاس به  
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب  
من مثل كسرى وسابور الجنود  
معا والهرمزان لفخر أو لتعظيم  
أسد الكتائب يوم الروع إذ زحفوا  
يمشون في حلق الماضي سابعة  
مشي الضراغمة الأسد للهاميم

### كراهية العرب والإسلام:

وصل الأمر بالشعوبيين إلى كراهية دين الإسلام الذي حملته العرب للعالم، بعدما عبد الفرس النار والشيطان والنجوم، بل عملوا على اختطافه وإدخال المعتقدات والخرافات البائدة فيه بعدما ينسوا من إسقاطه، ويصور الأديب العربي الجاحظ حركة الشعبوية وأهدافها بقوله: "فإنَّ عامَّةَ مَنْ ارتاب بالإسلام إنما كان أوَّل ذلك رأي السُّعوبية والتمادي فيه، وطول الجدل المؤدِّي إلى القتال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإنَّ أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ مَنْ أبغض تلك الجزيرة، فلا تزال الحلات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وكانوا السُّلف والقدوة" ..

### أثر الشعبوية في المجتمعات العربية:

لا شك أن صدمة حضارية كبرى وقعت على العجم بعد قيام الإمبراطورية العربية، فما كان يظن الفرس -على وجه الخصوص- أن يقوم للعرب قائمة وهم يعيشون في تلك الصحاري القاحلة بلا موارد ولا إمكانات ولا إرث يستندون عليه، فالاحتقار والنظرة الدونية سبغت العلاقة ودفعت الفرس للإيمان بتفوقهم العرقي على العرب، ووصفهم في كثير من أشعارهم وكتبهم باللصوص وأكلي السحالي، قال الجاحظ: " والشَّعوبية تهجو العرب بأكل العلهز، والفتّ، والدَّعاع، والهبيد، والمغافير، وأشباه ذلك" وهي أنواع من الحبوب كانت تُطحن وتُخبز.

لقد صعقهم الإسلام بتحضره وقيمه وأخلاقه ومكارمه، ودفع إمبراطورياتهم القديمة إلى الانكسار أمام هيئته وقيمه العظيمة، لكن ذلك لم يدفعهم إلى الاستسلام، فكان مدخلهم للسطو على مكانة الإسلام ادعاء المظلومية من العنصرية الكاذبة، وهذا ما يتكرر في كل عصر، فأدى بهم إلى إنشاء حركة مضادة تحت وصفي الشعبوية، ثم الانقضاض على الدولة العربية واختراقها صعودًا في السلم الإداري حتى الهيمنة على الخليفة رأس الدولة، وهو ما حصل تمامًا في العصر العباسي.

### جذور الشعبوية:

لا يتكفي كثير من الباحثين بإعادة الشعبوية إلى العصر العباسي أو خروج إرهابانها في العصر الأموي، بل يعيدون جذورها إلى حادثة اغتيال أبي لؤلؤة المجوسي للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهذا الفارسي لم يقبل أن يسقط إيوان كسرى وتهزم أمته أمام عرب الجزيرة العربية، لقد كان هدفه ليس الانتقام فحسب، بل تدمير الدولة العربية المسلمة في عُقر دارها وباغتيال زعيمها.

يؤكد الباحث تميم اليونس في مؤلف منشور له على أن حادثة اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب كانت أولى الأعمال العدائية للحركة الشعبوية انتقامًا للدولة السامانية التي فُهرت في عهده، وبلغت في بحثه إلى تزواج شعبوية اليهود مع شعبوية الفرس في صدر الإسلام، التي كان من روادها اليهودي اليمني عبد الله بن سبأ، وهو ما أثمر لاحقًا عن تحالفات مع القوى الأجنبية المعادية للإسلام والمسلمين كتتحالف الطوسي وابن العلقمي مع هولاكو والمغول.

### تأييد القوى النافذة في الدولة العربية:

خطورة الشعبوية تكمن في تحولها من حركة ثقافية مضادة إلى ما يشبه "الحزب السري" الذي عمل داخل الدولة العربية العباسية لهدمها، فرؤساء الوزراء الفرس، وكبار الموظفين حتى الأديب والشعراء ذوو العرق الأعجمي انخرطوا في تلك الحركة وأصبح مهمهم الوحيد الانتقام من العرب والخط من شأنهم، وإسقاط مكانتهم التاريخية وهدم دولتهم، وهو ما يراه رضا جامع في كتابه ظاهرة الشعبوية في العصر العباسي، قائلاً: "إن الشعبوية حركة ثقافية حضارية مناهضة للعرب، أو هي ما يشبه المنظمات التي كان يشرف عليها ويخطط لها ويتعهد بها ويساعدها رؤساء من الوزراء والأدباء والكتاب والشعراء من الموالي الفرس"، ويربط هذا التعريف الشعبوية بالفرس؛ لأنهم أكثر الموالي حقدًا على العرب، والشعوبيون هم أولئك الذين كانوا ينتمون إلى تلك الشعوب التي اعتنقت الإسلام ويتكروا على العرب أي فضل يتميزون به، وأساسهم العصبية التي لا تدخل في دين إلا أفسدته ولا في حياة إلا أهلكتها.

الشعوبيون الفرس كانوا يجاهرون أمام الخلفاء العرب بعنصريتهم

“

“

1) أنور الصادق، آثار حركة الشعبوية والزندقة على الحياة الفكرية في العصر العباسي الأول 132-266هـ، رسالة ماجستير، جامعة الفاتح، ليبيا (2006).

2) رضا رافع، "ظاهرة الشعبوية في العصر العباسي"، مجلة المدونة، مركز الدراسات الأدبية والنقدية، جامعة المدية، الجزائر (2015).

3) عبدالعزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعبوية، ط3 (بيروت: دار الطليعة، 1981).

4) عثمان العبادلة، "الشعبوية في الشعر العربي أهدافها ونشأتها"، مجلة جامعة الأزهر، العلوم الإنسانية، مجلد 3، ع.1 (2000).

5) نورة الظويهر، "الأبعاد التاريخية لعداء الفرس للعرب من ظهور الإسلام حتى نهاية العصر العباسي الثاني 334هـ"، مجلة جمعية التاريخ والآثار الخليجية، ع. 14 (2019).

6) الجاحظ، "الحيوان"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1424هـ.